

أحمد الجبلي.. والرجل العظيم في نظرية التآريخ.. ماذا لو سُلّم السلطة بعد 2003؟

بغداد/ (ترجمة المسلة): كتب ريتشارد هانانيا في صحيفة war on the rocks تقريراً عن مدى تماثل شخصية السياسي العراقي الراحل احمد الجبلي، مع "نظرية الرجل العظيم في التاريخ"، بمناسبة الذكرى الثالثة لوفاة الجبلي، التي تزامنت مع الذكرى العشرين لتوقيع الرئيس الأمريكي في ذلك الوقت، بيل كلينتون على قانون تحرير العراق، الذي وافق عليه مجلس النواب الأمريكي، بأغلبية 360 صوتاً مقابل 38 وبموافقة بالإجماع في مجلس الشيوخ.

شكّل القانون حالة استثنائية في تاريخ التشريعات الأمريكية التي تحدّد السياسات تجاه الدول، إذ جرت العادة أن الولايات المتحدة تحتفظ بموقف غامض من تغيير النظام حتى تجاه الدول التي تكون معها في حالة عداوة، لكن قانون تحرير العراق، منح الرئيس سلطة دعم منظمات المعارضة العراقية بنحو 97 مليون دولار من المساعدات الأمريكية لإزالة صدام حسين من السلطة.

وفي حين سعت دول غربية أخرى إلى تخفيف العقوبات ضد صدام، لم تفعل الولايات المتحدة ذلك أبداً، وربما يرجع ذلك جزئياً إلى قانون تحرير العراق. ومع ذلك، فإن قانون تحرير العراق جعل التقارب السياسي مع صدام حسين مستحيلاً، وحوله إلى عدو دائم للولايات المتحدة.

وبعد أحداث 11 سبتمبر، اقنعت أعضاء في إدارة بوش بأن الهجمات تتطلب رداً قوياً ضد الإرهابيين ومؤيديهم، ليحولوا تركيزهم أكثر إلى العراق، وتوحدت آراء النخبة الأمريكية ضد صدام حسين، الذي أظهر سلوكاً عدائياً خاصة تجاه الولايات المتحدة وقام بانتهاكات جسيمة لحقوق الإنسان في بلاده.

ومع ذلك، اتخذت ديمقراطيات غربية أخرى موقفاً أكثر ليونة، لكن الولايات المتحدة التي تتخذ موقفاً أقل صرامة عندما يتعلق الأمر بالأنظمة الاستبدادية صاحبة السجلات البشعة في حقوق الإنسان مثل الصين، فإنها كانت أكثر صرامة مع صدام. على رغم ذلك، فإنه وبعد أن غزا صدام الكويت، دعم الأمريكيون، الرئيس جورج بوش، عندما قرر عدم المسير إلى بغداد. لكن الأمر تغير جذرياً عن عامي 1991 و1998، حين أصبح صدام هدفاً جذاباً للقادة الأمريكيين بعد 11 سبتمبر، 2001، وكان للجبلي الدور الحاسم في ذلك.

قصة أحمد الجبلي

إن قصة قانون تحرير العراق هي إلى حد كبير، قصة أحمد الجلبي. ووفقا لكيث بولاك، فإن شخصية الجلبي تركت انطبعا إيجابيا قويا على أعضاء لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ في مارس 1998، ما جعل من تمرير مشروع القانون سهلا. ويمكن تلمس حياة الجلبي الرائعة وتأثيرها على السياسة الأمريكية والعراقية في كتابين، الأول "الرجل الذي دفع أمريكا إلى الحرب" للكاتب أرام روستون، و "سهام الليل" بقلم ريتشارد بونين. بعد طرد صدام من الكويت، بدأ المسؤولون الأميركيون يفكرون ما الذي سيحدث إذا ما أُطيح به.

عُرِض على الجلبي، الذي غادرت عائلته العراق بعد انقلاب 1958 وقضى عقودا في حياة المنفى، مبلغ 700 مليون دولار للإطاحة بصدام من قبل جاك مورتا، رئيس اللجنة الفرعية لمخصصات مجلس النواب في وزارة الدفاع، لكن الجلبي يقول إنه رفض ذلك على أساس أنه لا يحتاج إلى هذا القدر من المال. لكنه في النهاية قبل أن يأخذ الأموال الأمريكية من أجل قضيته.

في السنوات التي تلت حرب الخليج، بدأت وكالة المخابرات المركزية في دفع مبلغ 326,000 دولار في الشهر، إلى شركة علاقات عامة تسمى مجموعة ريندون للمساعدة في تأهيل وتقوية المؤتمر الوطني العراقي الذي ترأسه الجلبي، كما ساهم المال الخليجي بنحو 650,000 دولار أمريكي لعقد مؤتمر للمعارضة في صلاح الدين، و في غضون بضع سنوات، كان لدى المؤتمر الوطني موظفون من عدة آلاف يعملون في المنطقة الكردية في العراق، وأصبح الجلبي المصدر الوحيد لأمريكا، في المعلومات حول ما يجري داخل بلده الأم.

كانت وكالة الاستخبارات المركزية قد اختلفت مع الجلبي في منتصف التسعينيات. وكما روى الضابط الأمريكي بوب باير، فإن الجلبي طلب المساعدة الأمريكية واستخدام القوات الكردية ووحدات منشقة عن الجيش العراقي للدخول إلى بغداد. لكن المشكلة التي حدثت، ان كبار المسؤولين الأمريكيين أدركوا ان الجلبي اطلع الإيرانيين على تفاصيل الخطة، ما جعل مستشار الأمن القومي توني ليك يعلن بأنه لا يوجد أي دعم أمريكي.

ومع ذلك، مضى الجلبي قدما في الخطة لكنه فشل، الامر الذي أفقده ثقة المسؤولين الأمريكيين في وزارة الخارجية ووكالة الاستخبارات المركزية لاعتقادهم بأنه ما فعله الجلبي كان طائشا، بالإضافة إلى إدانته الغيابية في محكمة أردنية على خلفية الاختلاس.

ومع ذلك، فإن مهارة الجلبي السياسية كانت قادرة على تحويل حتى الخطة الفاشلة في كردستان لصالحه، ففي يونيو / حزيران 1997، اعتبر تقرير ABC الأولي من قبل بيتر جينينغز، ان الجلبي يشعر بالخيانة الأمريكية له في الخطة.

وفي 19 فبراير 1998، أدار ريتشارد بيرل لجنة حول مستقبل العراق شملت بول وولفويزر والجلبي. بعد ذلك مباشرة
خاطب الجلبي لجنة السياسة الجمهورية في مجلس النواب، والتقى بموظف في الكونغرس
يدعى ستيفن رادميكر، الذي انجز صياغة مشروع قانون تحرير العراق مع الجلبي والمؤتمر
الوطني العراقي.

وسمى الرئيس كلينتون، المؤتمر الوطني بأنه إحدى القوى الديمقراطية التي تستحق الدعم
الأمريكي، ليحصل على ما يقرب من 33 مليون دولار من وزارة الخارجية بين عامي
2000 و2003، من إجمالي ما لا يقل عن 59 مليون دولار من الأموال الأمريكية على مدار
السنين قبل 2003.

أصبح التغيير إلى العراق هدفا للنخب الأمريكية المحافظة منذ نوفمبر 1997، عندما بدأت
Weekly Weekly تدعو بانتظام إلى تغيير النظام. بعد شهرين من ذلك، أطلق مركز لحقوق
الإنسان رسالة مشهورة إلى الرئيس كلينتون تحثه على إزاحة صدام حسين، لينتج عن ذلك
تحول المحافظين الجدد إلى ترتيب أولويات تغيير النظام من خلال العمل العسكري الأمريكي
وقد كان لعلاقات الجلبي الشخصية مع شخصيات مؤثرة في السياسة الخارجية ذات الميول
اليمنية، الفضل في ذلك.

يقول جاكوب هايلبرون، أحد منتقدي المحافظين الجدد، أن "الجلبي كان محورا مركزياً في
اجنحة المحافظين الجدد لأنهم يعتبرونه الزعيم المتنور الذي يستطيع اخراج العراق من
العصور المظلمة". وحتى بعد غزو العراق العام 2003، واصل الجلبي التأثير على القادة
الأمريكيين وكان يطمئنهم حول المستقبل بعد الإطاحة بصدام حسين، وفي الأيام التي سبقت
اندلاع الحرب، أشار نائب الرئيس تشيني إلى الاجتماعات التي أجراها هو والرئيس مع
المعارضين العراقيين إلى ان العراقيين سوف يستقبلون الجنود الأمريكيين، كمحررين.

قام الجلبي بتزويد الصحفيين بقصص عن أسلحة صدام، نُشرت في التقارير الإخبارية التي
يتابعها المسؤولون الحكوميون. وفي إحدى المرات، عمل المؤتمر الوطني العراقي مع منشق
عراقي يدعي أن صدام أنشأ مختبرات للأسلحة البيولوجية، وهي قصة غير مؤكدة شقت
طريقها إلى خطاب كولن بأول الشهر في فبراير 2003 في الأمم المتحدة.

تبدو نظرية توماس كارلايل حول الرجل العظيم في التاريخ عموماً مفارقة تاريخية حين
تحدث في القرن التاسع عشر.

لكن يبدو مرجحاً بأنه من دون الجلبي لم يكن هناك قانون تحرير العراق ولا حرب العراق
الثانية.

حصل الجبلي على درجة الدكتوراه في الرياضيات من جامعة شيكاغو، ما يشير إلى أن معدل الذكاء لديه أعلى بكثير مما نراه عادة بين السياسيين، وأولئك الذين التقوا به كانوا يشيدون بتفانيه وجاذبيته. كان بإمكانه أن يلهم الآخرين بإخلاصه العميق لقضية التحرر العراقي، وهناك العديد من الأمثلة الموثقة عن تأثير الجبلي المغناطيسي على الآخرين. أحد أكثر الأمثلة دهشة، حالة الناشط السياسي فرانسيس بروك الذي باع منزله وانتقل إلى الجبلي من أجل التركيز بشكل كامل على الضغط من أجل الإطاحة بصدام.

ويدعي منتقدو صقور الحرب داخل إدارة بوش أن كبار المسؤولين كانوا يريدون وضع الجبلي في السلطة. معظمهم ينكر ذلك، ويقول إن هدفهم هو ببساطة تجنب الاحتلال عن طريق وضع وجه عراقي في الحكومة الجديدة في أقرب وقت ممكن. ومع ذلك، بينما فاز المحافظون الجدد، بالتأييد حول شن الحرب، فقدوا التأييد حول ما يجب القيام به في أعقاب ذلك. وبعد أن تم اختيار بول بريمر رئيساً لسلطة الائتلاف المؤقتة، اعترف أن القادة العراقيين لم يكونوا مستعدين للسيطرة على البلاد، وانحياز فعلياً إلى وزارة الخارجية.

الافتراق

أصبح الجبلي بعيداً عن حلفائه في الولايات المتحدة في العام 2004، بعد أن اقتنع الأمريكيون بأنه كان ينقل معلومات سرية إلى إيران، وقد كان ذلك أحد أسباب مدهامة منزله في بغداد، وأمر الرئيس بوش شخصياً بقطع التمويل عن المؤتمر الوطني العراقي. حاول الجبلي التكيف مع المرحلة الجديدة بإعادة اختراع نفسه كمعارض للاحتلال الأجنبي وساهم مع الأحزاب الدينية الشيعية في تشكيل الائتلاف العراقي الموحد.

بشكل مثير للدهشة، اعتمدت الولايات المتحدة مرة أخرى على الجبلي في أواخر العام 2005 عندما كاد العراق أن يخرج عن نطاق السيطرة، وفي نوفمبر من ذلك العام تمت دعوته إلى واشنطن للقاء رامسفيلد ورايس وتشيني. وفي الشهر التالي، ذهب إلى طهران.

لقد أهين الجبلي عندما حصل على ثلاثة مقاعد برلمانية فقط، ولم يتمكن من الحصول على أي نتيجة كبيرة عبر صناديق الاقتراع. ومع ذلك، ظل شخصية مؤثرة داخل العراق، وابدى الدعم لمقتدى الصدر ضد الحكومة العراقية في العام 2008. في العام 2014، وجد نفسه بشكل مثير للدهشة مرة أخرى أحد المرشحين الرئيسيين لرئاسة الوزراء، ولم يحصل الجبلي على هذا المنصب، وتوفي بنوبة قلبية في العام التالي أثناء عمله كرئيس للجنة المالية.

كان الجبلي رجلاً معقداً، ويمكن للمرء أن يستلهم الكثير من حياته. اعداءه يرون أنه كان السياسي الجائع للسلطة، دون بوصلة أخلاقية ثابتة. من وجهة نظر أخرى، فإن هناك من يراه مناضلاً من أجل الحرية في محاولة لإرساء دعائم عراق حديث.

ما لا يستطيع أحد أن ينكره هو أن الجلبى كان رجلاً له الكثير من الحلفاء مثل وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، وأعضاء من وسائل الإعلام الأمريكية، ومفكرين من المحافظين الجدد، وأعضاء الكونغرس، والأحزاب الشيعية الإسلامية والأحزاب الكردية في العراق، ومقتدى الصدر، والحرس الثوري الإيراني.

لقد ظلت طاقاته وجاذبيته متقدمة حتى وفاته، ونادراً ما وجد نفسه بعيداً عن مركز السياسة العراقية بعد عام 2003. كما أظهر قدراً كبيراً من الشجاعة.

كان أولئك الذين يسعون إلى الإطاحة بصدام مجموعات متنوعة، وكان الجلبى هو القناة الواصلة بينها. على سبيل المثال، في أغسطس 2002، أقنع زعيم المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق، آية الله عبد العزيز الحكيم، أن يطير من طهران إلى واشنطن للقاء مجموعة من كبار المسؤولين الأمريكيين، بما في ذلك تشيني ورامسفيلد. وكان لرجل الدين انطباعات إيجابية عندما وعد القادة الأمريكيين بأن العراق لن يصبح نسخة من إيران بعد رحيل صدام. من الصعب تخيل أي عضو آخر في المعارضة المناهضة لصدام يملك ما يكفي من المهارات السياسية للتوسط في مثل هذا الاجتماع، ناهيك عن إقناع المحافظين الجدد بالذهاب إلى الحرب من أجل تمكين حزب يقوده رجال دين قرييون من إيران.

ماذا لو استلم الجلبى السلطة؟

ما الذي كان سيحدث لو أن الولايات المتحدة سلّمت ببساطة السلطة إلى المؤتمر الوطني العراقي الذي كان يهيمن عليه الجلبى في ربيع عام 2003.. من المستحيل معرفة ذلك، وكيف أن الإجابة على هذا السؤال تعتمد إلى حد ما على نظريات التاريخ التي يجدها المرء أكثر أو أقل معقولة. ومن وجهة نظر واحدة، كان العراق مقدراً أن يرى حرباً أهلية وأن يدار في نهاية الأمر من قبل الإسلاميين الشيعة بعد إزالة صدام، وهي نتيجة كانت لا مفر منها على أساس ثقافة البلاد وتاريخها وجغرافيتها وسكانها.

ظل العراق، طيلة 14 شهراً، تحت السلطة المطلقة لبول بريمر، الذي لم يتحدث اللغة العربية، ولم يكن لديه خبرة خاصة في المنطقة، ولم تكن هناك علاقات سابقة مع أي سياسي عراقي. في مذكراته، يروي بريمر اجتماعه مع مجلس القيادة العراقية بعد مجيئه إلى العراق، والذي ضم أعضاء من المؤتمر الوطني العراقي من بين آخرين يسعون لتشكيل حكومة جديدة، ان الزعماء العراقيين الجدد لم يكونوا مهيين لإدارة البلاد.

ريتشارد حنانيا زميل باحث في معهد سالتزمان لدراسات الحرب والسلام في جامعة كولومبيا.